



هذه المرة بدا الأمر مختلفاً، فتحت الباب على وجه ضابط في الستينيات من العمر، له عين واحدة، فالثانية ملونة بريشة بيضاء، كان "السيكلوب" يتحدث بلهجة السلطة الموقرة، اللهجة السكين. قال لي: إنهم سيقيمون في شققى حتى القضاء على مظاهرات الحي، فشققى هي الأعلى في البناء ومنها يمكن مراقبة نصف الحارة الملتهبة بالمظاهرات مثل بقية أحياء المدينة، وذلك شأن يطول حُقباً، فرفعت يدي علامة الاستسلام مع ابتسامة مغتصبة اغتصاباً. قال: تسمح لنا..

دخل العقيد البخاري من غير أن آذن له، يجرُّ وراءه دخان سيجارته، وتجول في الدار ببوطه ماشيا على السجاد الطاهر مثل شوارزكوف على البيداء العربية الطاهرة، فنحن مثل دور معظم أهل البلد كل دار مسجد بلا محراب أو مئذنة، النعال تُخلع عند العتبة، أما المتشددون فيخلعونها خارج الشقة، مؤذين بها سكان العمارة. الأحذية على الباب يدلا من الورد.

لم تكن أول مرة أفتح فيها باب الشقة على الخوذ الحديدية والجذم العسكرية المداهمة للتفتيش، قالت ابنتي الصغرى: بيتنا صار شارعاً وطريقاً عاماً من كثرة الدهم. صحت الوسطى: بل جبهة حرب. قليل الدهم الأول لم يخلُ من تهذيب مصطنع وغريب، لم يكن له معنى ما دام تفتيش الدار حتمياً وإكراهاً، إن العسكر إذا دخلوا منزله أفسدوه وجعلوا أعزه أهله أذلة وكذلك يفعلون. كنت أقدر تهذيب الضابط المرافق، وأنسبه حسب صوت اللهجة. عرفت أن بعضهم يحاول انتقال لهجة أهل الشام كيداً ومكرًا. في البدايات كانت المداهمات من الجيش النظامي، واحتفل أهل الحي معهم، وقضى الأهالي والعسكر أيامًا سعيدة، كانت الموائد تنزل بالطعام في أوقات الأكل الثلاثة على الجنود أنواعاً وأشكالاً وألواناً حتى سمنوا.. قال المجندون: كنا نموت من الجوع في الكتيبة، الضباط يسرقون الطعام، فلا نأكل إلا الفرات. وقعت عينه السليمة على آية قرآنية معلقة بالخط الديواني الجلي في أعلى الديوان: هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ، فامتعض، وعدّها علامة عداوة وبغضاء ورجعية وخيانة لفكر سوريا التقدمية الاشتراكية. أمر الضابط، الذي عرفت أنه عقيد من رتبة رئيس ليببيا من نجومه على الكتف الجنديين بالمرابضة لدى الباب، وبدأ جولة تفقدية في الشقة، أول ملاحظة لعينه الوحيدة كانت كبر الشقة، سأله عن مساحتها، وما إذا كانت إيجاراً أم ملكاً، وسألنا عن عدد أفراد الأسرة، نظر إلى وإلى زوجتي والبنات الثلاث، وقال بلهجة ضابط تفقد:

في واحد غياب، تشكييل فرار!!

قلت: أبني مسافر للدرس والعلم في جامعة دمشق..

سؤال عن كليته وهزّ رأسه علامه على الإعجاب بنبوغه.

قصد المطبخ ونطق بالملاحظة العسكرية الاستراتيجية الثانية: براد البطريق!! وأقسم بحظه، ويبدو أنّ الحظ رب من الأرباب: أن البطريق من أحسن البرادات، وأنه عقید في الجيش، ولم يكن لديه سوى براد "بردى" حتى الأمس القريب، السبب هو أنه لا يسرق، قال: إن الضباط كلهم "يفيّشون" للعساكر إلا هو، فهو شريف. فتح الباب فوجد العقید الشريف صحنا من التفاح، مدّ يده وقضمهها من غير أن آذن له فأثبتت لى عزته وشرفه.

الملحظة الثالثة كانت عن الأسرة التي صممها صديق نجار في غرف النوم، فأبدى إعجابه بها، وسأل عن تصميمها الغريب، فقلت: هذه الأسرة يمكنها أن تقف على قدمين نهاراً أو على أربع ليلاً، فأقسم بحظه المقدس أنها أسرة رائعة.. لاحظ الملاحظة العسكرية الرابعة وهي أنه يوجد في البيت جهاز تلفاز، فقال: معناها أنت دخلك جيد، وسألني فيما إذا كنت أرتضي مثل بقية موظفي الدولة، فضحكـت وقلـت: وظيفـتي ليس لها بـاب أو نافـذـة رـشـوة، وأـخـبـرـته عن مـهـنـتي وـمـهـنـة زـوـجـتي، فـهـزـ رـأـسـهـ عن إـعـجـابـهـ. العسكريـونـ والمـخـابـراتـ يـعـدـونـ أنـ المـوـظـفـينـ مـوـالـوـنـ فـيـ الـأـغـلـبـ. سـأـلـنيـ عنـ رـأـيـهـ فـيـ مـؤـامـرـةـ بـنـدرـ بـنـ سـلـطـانـ، فـسـكـتـ، سـأـلـ ثـانـيـةـ، فـقـلـتـ ماـ أـكـثـرـ الـمـؤـامـرـاتـ عـلـىـ الشـرـفـاءـ. أـقـسـمـ أـنـ الـبـيـوـتـ الـتـيـ دـهـمـهـاـ كـلـهاـ بـرـادـاتـ، وـهـوـ لـاـ يـعـرـفـ شـعـبـاـ عـنـدـهـ أـجـهـزةـ تـبـرـيدـ وـيـتـظـاهـرـ!.. قـلـتـ: لـعـلـهـ تـأـثـيرـ الـفـضـائـيـاتـ الـمـسـمـوـةـ، فـأـقـسـمـ بـحـظـهـ: إـنـ هـذـاـ هـوـ السـبـبـ.. وـقـالـ إنـ الرـئـيـسـ تـسـاهـلـ مـعـنـاـ، فـلـوـ كـانـ مـحـلـهـ لـأـغـلـقـ السـمـاءـ بـالـبـيـوـنـ الـمـسـلـحـ، وـجـعـلـ مـشـاهـدـةـ قـنـاةـ الدـنـيـاـ فـرـضاـ وـوـاجـبـاـ عـسـكـرـيـاـ. أـبـدـىـ حـدـبـاـ قـوـيـاـ عـلـىـ زـمـيـلـهـ الـعـقـيدـ الـقـذـافـيـ، وـأـنـكـرـ مـاـ يـفـعـلـهـ الشـعـبـ الـنـاـكـرـ لـلـجـمـيـلـ، قـائـدـ شـجـاعـ وـكـرـيمـ وـيـنـفـضـونـ ضـدـهـ.. هـذـاـ شـعـبـ يـسـتـحـقـ الـحـرـقـ.

قلت في نفسي: لعل شعبه بلا برادات.

لَمْ أَقْرَأْ أَنَّ الْثُورَةَ الْفَرْنَسِيَّةَ كَانَتْ يَسِّبَ بِرِّ إِدَاتِ ؟ !!

وقف في الممر الطويل الذي تقف على جانبيه الغرف، وهو يدخن ، وأوًمأ إلى آية قرآنية معلقة في صدر الممر، تقول بخط النسخ الجليل: **(وَهُوَ الْفَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)**. وقال لي إنه يشك في أنني من الإخوان المسلمين، فابتسمت ولم أجُب، قال: بيتك كله آيات قرآنية، ولا صورة واحدة لسيادة الرئيس أو أقواله؟

وَقَعَتْ فِي حَرْجٍ، وَشَرِدَتْ بَعِيدًا، وَعَمِلَتْ نَكَائِي فِي الْبَحْثِ عَنْ جَوَابِ لِينَ، وَعَرَفَتْ لَاحِقًا أَنَّ أَكْبَرَ الْعُقُولِ وَأَنْذَكِي الْأَجْوَبَةِ لَا تَعْدِلُ كَلْمَةً حَقًّا مِنْ لِسَانِ صَدِيقٍ، فَقَلَتْ مَدَاجِيَا: صَدِيقِي مُصَمِّمُ الْأُسْرَةِ الْجَمِيلَةِ هَذِهِ، مُهَنْدِسُ مُسْكِنِي يَزْعُمُ لِي أَنَّهُ مَلْحُدٌ، زَرَتْهُ فِي بَيْتِهِ فَوُجِدَتِ الشَّقَةُ مَزَينَةً بِعَبَاراتٍ مِنَ الْإِنْجِيلِ، سَأَلَتْهُ عَنِ الْعَلَةِ وَهُوَ مَلْحُدٌ، فَقَالَ: إِنَّ زَوْجِي هِيَ الْمُؤْمِنَةُ. تَابَعَتْ فِي التَّشْرِيدِ وَالظَّرَادِ: صُورُ الرَّئِيسِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَأَقْوَالُهُ أَيْضًا، أَمَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ... تَوَقَّفَتْ فَلَعْنَى دَخْلَتْ مَخَاضَةً يَصْعَبُ الْخُرُوجَ مِنْهَا... اَنْتَبَهَتْ عَيْنَهُ الْوَحِيدَةِ إِلَى السُّجَادَةِ، فَقَالَ مَتَهِمًا: وَتَصْلِي أَيْضًا؟

قلت: صديقي إلياس المسيحي يصلني وهو ملحد، وسيادة الرئيس يصلني أيضاً. فسكت، لعلي وفقت أخيراً على جواب حسن.

قال إنه ضبط مجندين بالجريمة المشهود يصليان في الجيش، وقد غابا عن الدرس الذي كان فيه محاضرا، فللقنها درساً لن ينسياه. سألت عن الدرس الذي غاب عنه المجندان الآباء، فقال: إنه كان يشرح عن بارودة الصاموبيال، كان هذا هو الدرس الوحيد الذي لزمنا من الثانوية إلى نهاية التدريب العسكري في الجامعة، ومعها البارودة الكندية ذات الكعب المصنوع من خشب الجوز الإيطالي، ومداها المجدى ومداها الأقصى، الذى يارك النظام حوله.

قصد غرفة الاستقبال، أتبعه أنا وزوجتي التي لحقته حتى تضع له منفحة السجائر، تناول جهاز الريموت، ونحضر سيجارته على السجاد، كنت قد احتطت لهذا الأمر وأخفيت القنوات المحرمة بين ألفي قناة، وجعلت في مقدمتها فضائيات التبن والمأمة. وهو يبحث عن القناة المقصودة، سأله: أين فضائية العرعور؟

تساءلت متفاجلاً: العرعور؟.. قال مستنكراً: يعني لا تعرفه! صاحب قناة صفا، كبست له على زرٍ يصنف الأقنية حسب الأحرف الأبجدية فوجدت القناة، وقال هذا هو شيخ الفتنة وسأل: أعندهكم متة؟
قلت: لا ..

ضحك ونظر بعينه الوحيدة: لأنه مشروب طائفي؟

قلت: لدينا خير كثير.. شاي أخضر وأحمر وأسود .. قهوة... كركديه، عصير، وقلت كلمة شعرت أنها أجراً كلمة قلتها منذ اقتحامه الشقة: لا أحبُ المأمة. وأخفيت عنه أنني ما إن أرى أحداً يشربها، حتى يسقط من عيني.
قال: هات شاي..

قلت: من عيوني.. وقصدت المطبخ، فقال محتاجاً على مبادرتي لإعداده. وأمرني أن أجلس لتناوله، دع المدام تعمله، لعله أحسَّ أنني أهرب من الحديث معه، فجلست وقلت له من عيوني..

أشعل سيجارته العاشرة: ما قصتك عيوني.. ومن عيوني.. أتسخر من عيني..؟

قلتُ: أعوذ بالله.. هذا كلام سائر على الألسنة، كلام أهل الشام.. واستغربت أن يترقب ضابط أعور بعين واحدة إلى هذه الرتبة، فسلامة الأعضاء شرط من شروط العسكري المجندي، فكيف ترقى إلى هذه الرتبة؟! الجندي المعاقد يعفى من الجيش، فلا بد أنه متطوع فدائي.

رن هاتفي، إنه جاري، ويطلب المساعدة في عطل كهربائي، استأذنت منه، فأذن لي في "مأذونية" من غير "فيش" خرجت من غرفة الاستقبال، فلوحت لي زوجتي التي سمعت الحديث، وقالت: ترکنا مع هذا الكافر!!

قلتُ لزوجتي ساخراً: سوريا دولة علمانية لا كفار فيها، كل سكانها مؤمنون بالرئيس.

قالت: واضح أنه كافر، ومسلح وأعور ومجنون، وسکران أيضاً.. الستائر شبعـت رائحة دخان.

قلتُ لها: سأعود بعد ثلاث دقائق.

تناولت المفك الكهربائي وخرجت، فاستوقفني العسكريان على الباب وطلباً الهوية، فأيقنت أنني أعيش رواية من روايات كافكا: يصحو شعب فيجد نفسه صراغير الرئيس قرداً.. ابتسمت لهما، سألاًني فيما إذا كنت قد استأذنت سيادة العقيد، فهزّت رأسـي.. تركاني.. عدت بعد خمس دقائق.

كان سيادة العقيد يثرثـر كثيراً وي مدح نفسه، ويصدر الأوامر للعسكريين الذين يتصرفـان كعبيدـين حقيقـيين، فأحسَّ بحرـج ونقص في الإنسـانية، والعـار، عـقل العـقـيد أـعـور أـكـثـر من عـيـنـه، جـلـسـنا نـشـرـب الشـاي المـطـيـب بالـقـرـفةـ، شـكـا لـي إـنـ ولـديـهـ في الجـبـهـةـ يـحـارـيـانـ ضدـ الجـمـاعـاتـ المـسـلـحـةـ وـكـانـتـ قدـ ظـهـرـتـ مؤـخـراـ، وـأـنـهـ خـائـفـ عـلـيـهـماـ منـ الـانـغـمـاسـيـيـنـ، وـكـانـتـ قدـ ظـهـرـتـ بـعـدـ سـنـةـ منـ اـنـطـلـاقـ الثـورـةـ، وـبـدـأـ يـخـطـبـ وـيـدـخـنـ وـاـضـعـاـ بـوـطـاـ عـلـىـ بـوـطـ. سـأـلـتـ عـنـ عـمـلـ الـوـلـدـيـنـ، فـقـالـ إـنـ أـحـدـهـماـ ضـابـطـ أـمـنـ فـنـدـقـ خـمـسـ نـجـومـ، وـالـثـانـيـ ضـابـطـ مـتـطـوـعـ. نـظـرـ إـلـىـ الـمـكـتـبـةـ، وـعـدـهـاـ مـكـتـبـةـ كـبـيرـةـ وـسـأـلـ فـيـمـاـ إـذـاـ كـنـتـ قـرـأـتـ كـلـ هـذـهـ.

الكتب؟ فهزّت رأسي، فقال إذا كنت قد قرأتها فأنت مثقف.

في المكتبة كتب كثيرة ممنوعة يحرم تداولها في سوريا، لكنني أشك في أنه يعرفها. قلت له: الكتب مثل الطعام يأكل الإنسان كثيراً من الوجبات ولا يعرف أيها كانت سبباً في نموه.

نظر إلى كتاب في أعلى المكتبة فقال: هذا قرآن؟

قلت: مصحف كريم بخط مغربي.

نهض وقصد المكتبة وتناول المصحف الذي يلمسه المسلمين طهراً بوضوء إجلالاً، شممت منه رائحة عرق، لم يكن يحتاج إلى عرق حتى يمنع عقله إجازة، قلب صفحات المصحف وأخبرني أنه يحفظ جزءاً كاملاً من القرآن، فاستغربت.. وقال لي تستغربون وتظنون أننا كفار.. فقلت: المهم أننا مواطنون سوريون.. وجاملته مخاللاً: نحن دولة علمانية لا تفرق بين مواطنينا على أساس الدين.

اقترح أن يسمعني سورة المطففين، فبدأ يتلوها بسرعة طفل طلب منه المعلمة تسميع الدرس، وأنفاسه تتلاحم، في نهاية السورة جعل الفعل المبني للمجهول المعلوم اسمها: هَلْ تُوبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وقال لي: ما رأيك؟

كان سيادة العقيد، مطففاً، كلمة كلمة، زنقة زنقة، جملة جملة، لم يتل آية على الوجه الصحيح، قلت: إن الأبرار.. لفي نعيم، وليس الفجار؟

فتح المصحف الذي كان معلقاً في يده على سورة المطففين، وقال: صحيح.. وأقسم بحظه على أمر لم أفهمه..

انتبهت عينه الصحيحة إلى ما عدها أخطاء إملائية، فالمصحف المغربي ينقط حرف القاف بنقطة واحدة أما الفاء فنقطتها من تحت.. هل هؤلاء ضعاف بالإملاء وعلوم النحو؟

وضحت أن المسألة اعتبارية، فقال: لو أن الأمر بيده لأزاهم نجوم الظهر!

ظهر برنامج العرعرور في حالة الإعادة، فسكت يتبعه، فاعتذررت، وطلبت منه مثل عسكري مجند إننا للنوم، فقال لي مستغرباً: أنت تنام مبكراً!! قلت: عندي عمل صباح غد، فهز بوطه علامة الفهم، تركته وقصدت غرفة النوم، في طريقي رأيت العسكريين جاثيين أمام الباب المفتوح. استنكرت زوجتي: حلو والله.. كم سيمكث هذا الصهيوني هنا؟ حمدت الله أنه لم يكلفني بالحراسة.

قلتُ: أخضي صوتك.. لا أعرف. النساء سبب كل المصائب لا يقدّرن الواقع حق التقدير، قلت لها: إن حظنا أحسن من غيرنا.. فهم في حالات مشابهة يحتلون الدار، ويطردون صاحبها من أجل الوطن المعطاء، هل تنتظرين مني أن أحارب الجيش الباسل.

بدأت زوجتي تلومني وكأني أنا السبب في هذه الغزوة التي صارت فيها سبيّة، وصرت فيها عبداً، وبدأت تحضني على عمل مظاهرة ضده. سمعنا أصوات المظاهرة الليلية في الحي تنطلق، ما إن انطلقت تعلو بالهاتف حتى دخل العقيد من غير استئذان مقتحماً غرفة النوم مسلحاً ببنديقته الآلية الروسية.. وجلس على السرير، فنفرت زوجتي مذعورة، قال إنه سيصطاد بعض المندسين المخربين والإرهابيين، بدأت المقاومة والممانعة في الزمان والمكان المناسبين أخيراً..

شتم: عراغير.. وأطلق سيادة العقيد رشقة نارية، فصرخت البنات في الغرفة الثانية، وصاح صبية متأملون من أثر إطلاق

النار عليهم غدرا، وتفرت المظاهرة.. وكان هذا يعني أن عينه السليمة تحسن التصويب، وأن شقتي صارت مشموعة، ومصنفة مع الفجار عند كل أهل الحي، وأن كتابي كتاب مرفق، ولأفي سجين، وما أدرأك ما سجين، وأنني يجب أن أرحل غدا تاركا البيت، مثل بقية الشعب السوري، لسيطرة العقيد الأعور ...

مع براد الطريق طبعا.

21 عربي

المصادر: